دراسة العقد الفريد

وضّح صاحب العقد الفريد نهجه في وضع كتابه ، فقد تطلّب نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال وقصد من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهراً وأظهرها رونقاً وألطفها معنى وأجزلها لفظاً وأحسنها ديباجة وأكثرها طلاوة وحلاوة وجعل كتابه جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة .

فالذي يتبيّن لنا من تضاعيف هذا الكلام ان الغاية التي يرمى اليها ابن عبد ربه في تأليف كتابه انما هي الثقافة الأدبية على تعبير هذا العصر وقد كانت آفاق هذه الثقافة على نحو ما أشار اليه : الحكم والأمثال والأخبار والآثار وكانت خصائص صيغها شرف الجوهر وظهور الرونق ولطف المعنى وجزالة اللفظ وحسن الديباجة وكثرة الطلاوة والحلاوة .

ولكن هل ننظر الى كتابه في عصرنا هذا نظرته اليه .

لما وضع أبو الفرج الأصبهاني كتاب الأغاني قال في صدر المقدمة :

« هذا كتاب ألّفه علي بن الحسين بن محمد القرشي الكاتب المعروف بالأصبهاني وجمع فيه ماحضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها ونسب كل ما ذكره منها الى قائل شعره وصانع لحنه وطريقته من ايقاعه وأصبعه التي ينسب اليها من طريقته واشتراكِ ان كان بين المغنين على شرح لذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكنا لما درسنا كتاب الأغاني لم ننظر الى الأغاني العربية ، قديمها وحديثها التي جمعها أبو الفرج على قدر نظرتنا الى موضوعات ثانية يشتمل عليها الكتاب أوحتها الينا روح العصر الذي نعيش فيه وهو عصر التحليل والتنسيق والمقابلات ونحو ذلك ، فقد وقعنا في كتاب الأغاني على أشياء كثيرة من أخبار العامة والكتاتيب والملاهي والدور والموائد والأواني والفرش والثياب والمطاعم والخانات واهتدينا الى طائفة من خصائص الحجاز والشام والعراق وعرفنا عادات المتقدمين في أفراحهم وأحزانهم وانكشفت لنا حرية المرأة في الزواج والطلاق والحجاب والسفور وحرية الناس في مقامات الخلفاء والأمراء والعمال وحريتهم في المعتقدات والاستخفاف بمقدسات الأمور وفي التربية والقضاء كما انكشفت لنا عبوديتهم وأحطنا بشيء من اللهو والتبذير والغناء ومواكب الحج ، وعلى الرغم من كثرة هذه الموضوعات التي ظفرنا بها في كتاب الأغاني فقد يجوز ان الذي فاتنا انما هو أكثر من الذي حصلنا عليه ، ولكن الذي حصلنا عليه فهو غير يسير فقد أحطنا بطراز من الحياة الاجتماعية من أكثر نواحيها .

من هذا كله يتبين لنا اختلاف العصور في أذواق أهلها ومناهج بحثهم وتنقيبهم وغير ذلك ، فنحن لا ننظر الى العقد الفريد في زمننا هذا نظرة صاحبه اليه ، انما نمر بنظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال التي تطالبها وننتهل في الأخبار والآثار المشتملة على شرف الجوهر وظهور الرونق ولطف المعنى وجزالة اللفظ وحسن الديباجة وكثرة الطلاوة والحلاوة فننتفع بهذا كله ونروض أذواقنا ونصقل أفهامنا ولكنا لا نقتصر في دراسة العقد الفريد على هذا الترويض وحده وعلى هذا الصقل وحده .

كيف ندرس العقد الفريد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يتضمن العقد الفريد خمسة وعشرين كتاباً فاذا أحببنا أن ندرس العقد الفريد لزمنا ان ننظر في كل كتاب منها نظرة عامة حتى نعرف محاسن هذا الكتاب أو مساوئه ولكني الآن لا أستطيع أن أنظر هذه النظرة وانما أقتصر على أمثال من الدراسة ٠

سمّى ابن عبد ربه كتابه الأول : كتاب اللؤلؤة في السلطان ٠

لا بأس بأن أشير قبل الكلام على هذا الكتاب الى ما نسميه في يومنا هذا : تطوُّر الألفاظ ، فقد استعمل ابن عبد ربه طائفة من الألفاظ كانت مستعملة في عصره وقبل عصره تدلُّ على جملة من المعاني لا تدل عليها اليوم ، من هذه الألفاظ : السلطان والإمام والرعية ، فهو يريد بالسلطان ما نسميه اليوم الحكومة ويريد بالإمام الحاكم على لغة هذا العصر ويعني بالرعية الشعب أو الأمة على مصطلحنا ، نجد في هذا كله ان الألفاظ لا تثبت على معنى واحد في العصور كلها وانما معانيها تختلف على اختلاف هذه العصور ، فمرَّة تضيق ومرَّة تتسع ، وحيناً تخص وحيناً تعم ونحو ذلك ، وهذه إشارة لغوية لا بدَّ منها قبل كلامنا على كتاب اللؤلؤة في السلطان ٠

كيف يبحث ابن عبد ربه في السلطان ، هل نسَّق بحثه تنسيقاً وقسمه أقساماً وأفرد لكل قسم منها باباً أم عاظل بين مباحثه حتى ركب بعضها بعضاً فبينا نراه يبحث عن عدل الحكومات إذ نراه يبحث عن واجباتها دون شيء من الصلة بين البحثين ٠

بدأ ابن عبد ربه بتعريف السلطان فقال :

السلطان زمام الأمور ونظام الحقوق وقِوام الحدود والقطب الذي عليه مدار الدنيا وهو حمى الله في بلاده وظلُّه الممدود على عباده به يمتنع حريمهم وينتصر مظلومهم وينتقم ظالمهم ويأمن خائفهم ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا تعريف ابن عبد ربه للسلطان أي للحكومة وكما رأينا ان الألفاظ تتطور على مرّ العصور فكذلك نرى ان التعريفات تدخل في مثل هذا التطور فلو اطلع رجل من رجال الحقوق على هذا التعريف لتبيّن له ان تعريف الحكومة في هذا العصر يختلف عن تعريفها في عصر ابن عبد ربه .

وبعد أن فرغ صاحب العقد الفريد من تعريف الحكومة انتقل فجأة الى الكلام على عدل الحاكم فروى قول الحكماء في هذا المعنى : إمام عادل خير من مطر وابل وإمام غشوم خير من فتنة تدوم ولما يَنزع الله بالسلطان أكثرُ مما يَنزع بالقرآن .

ثم رجع فذكر واجبات الحكومة فقال :

فحق على من قلّده الله أزمّة حكمه وملّكه أمور خلقه واختصّه باحسانه ومكّن له في سلطانه ان يكون من الاهتمام بمصالح رعيته والاعتناء بمرافق أهل طاعته بحيث وضعه الله عزّ وجل من الكرامة وأجرى له من أسباب السعادة ، قال الله عزّ وجلّ : « الذين ان مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهَوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

وانه ليحصي واجبات الحكومة إذ نراه يعود الى الكلام على عدل الحاكم : قال النبي ﷺ عدل ساعةٍ في حكومة خير من عبادة ستين سنة ، وقال ﷺ : كلّكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته .

ثم نراه بعد ذلك يتصدّى لوصف أخلاق الرعية فيقول :

ومن شأن الرعية قلّة الرضا عن الأئمة وتحجّر العذر عليهم وإلزام اللائمة لهم وربّ ملوم لا ذنب له ولا سبيل الى السلامة من ألسنة العامة اذ كان رضا جملتها وموافقة جماعتها من المُعْجِز الذي لا يدرك والممتنع الذي لا يُملك ولكلٍ حصته من العدل ومنزلته من الحكم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم يندفع في بيانه واجبات الرعية فيقول :

فمن حق الإمام على رعيته أن تقضي عليه بالأغلب من فعله والأعمّ من حكمه ومن حقّ الرعية على إمامها حسن القبول لظاهر طاعتها وإضرابه صفحاً عن مكاشفتها .

هذه نماذج من بحث ابن عبد ربه عن السلطان في ورقتين من كتابه ولو مضينا في عرض هذه النماذج لوصلنا الى نتيجةٍ واحدةٍ ، فان ابن عبد ربه لم ينسّق بحثه عن السلطان ولا وضع له نهجاً فنجده ينتقل فجأة من فكر من الأفكار الى فكر آخر دون صلةٍ ، أو اذا كانت الصلة بين الفكرين متقاربة كالصلة بين واجبات الحكومة والشعب أو السلطان والرعية فان منطق التسلسل بينهما مفقود ، لأن ابن عبد ربه يحشر بين الفكرين فكراً آخر على سبيل الاستطراد لا صلة له بهما .

هذا النوع من اختلال التأليف بين الأفكار المتقاربة نجده في ورقتين من الكتاب واذا تتبعنا أوراق الكتاب كلها وجدنا الاختلاف ذاته .

بينا نجده يبحث عما يصحب به السلطان فيبيّن الأمور التي يجب على الانسان أن يتمسك بها في صحبة السلطان فيذكر قول ابن المقفع في هذا الباب :

لا تكن صحبتك للسلطان الاّ بمد رياضة منك لنفسك على طاعتهم ، فان كنت حافظاً اذا ولّوك حذِراً اذا قربوّك أميناً اذا ائتمنوك ذليلاً اذا حرموك راضياً اذا أسخطوك تعلّمهم وكأنك تتعلم منهم وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر والاّ فالبعد منهم كلّ البعد والحذر منهم كل الحذر .

بينا نجده يبحث عن هذه الأمور ويستكثر من الاستشهادات في هذا الباب اذ نجده يروي قصة معاوية مع عمر بن الخطاب ، قال يزيد :

حدثني أبي ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبد الرحمن ابن عوف على حمار فتلقّاهما معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر معاوية حتى أُخبر به

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فرجع اليه فلما قرُب منه نزل اليه فأعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل فأقبل عليه عمر فقال : يا معاوية ! انت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ولِمَ ذاك ، قال : لأنا في بلاد لا نشتغ فيها من جواسيس العدو ولا بدّ لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فان أمرتني بذلك أقمت عليه وان نهيتني عنه انتهيت فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فانه رأي أريب وإن كان باطلاً فانها لخدعة أديب وما آمرُك به ولا أنهاك عنه ، فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسَنٌ ما صدر به هذا الفتى عمّا أوردته فيه ، فقال : لحسن مصادره وموارده جشّمناه ما جشّمناه !

فاذا دلّت هذه الحكاية على شيء فانها تدل على عقل معاوية فأيّ معنى لحشرها في جملة الأمور التي يُصحب بها السلطان .

هذه أمور نجدها في كل كتاب من كتب العقد الفريد ، لا شك في ان مقدمة العقد تدل على شيء من الترتيب والتنسيق فان صاحبها لما قال : فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال قال : ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته باباً على حدته ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره في كل باب .

معنى هذا انه جعل في كل باب موضوعات متشابهة فأمور الحروب محصورة في كتاب الحروب وأمور المواعظ والزهد محصورة في كتاب المواعظ والزهد ولكن ابن عبد ربه لما جاء الى كل باب من أبواب الكتاب عاظل بين الموضوعات دون شيء من التنسيق على نحو ما ظهر لنا هذا التعاظل في الذي استشهدنا به .

وهذا عيب لا ينسب الى ابن عبد ربه وحدَه ولكنه ينسب الى أكثر أدبائنا في القديم فكانَ وحدة الموضوع كانت مفقودة وأريد بوحدة الموضوع معالجة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فكر من الأفكار من أكثر نواحيه أو من أقل نواحيه على قدر استعداد الكاتب دون أن تتخلّل هذه المعالجة استطرادات تدخل الضيم على تنسيق الفكر ، أكثر كتب أدبنا في الماضي هذا هو عيبها واذا نفعتنا هذه الكتب في جزالة اللفظ وحسن الديباجة وكثرة الطلاوة والحلاوة وأمثال هذا كله فلم تنفعنا في حسن التفكير وتنسيق الفكر ، فقد نظفر في بطون هذه الكتب بأروع الحكم والأمثال والأخبار والآثار والأدب ولكنا قليلاً ما نظفر فيها بأفكار عالجها أصحابها بشيء من المنطق وأريد بالمنطق في مثل هذا المقام معالجة الفكر من جهات معينة لا استطراد يخلّ بها ولا معاظلة تفسدها وقد نجد مثل هذا العيب في شعرنا نفسه فان أكثر شعرنا في الماضي لا وحدة للموضوع فيه فالقصيدة تشتمل على عدة موضوعات لا نظام يجمعها ولست أدري سرّ هذا العيب فينا فكأنا ننظر الى الأمور من سطوحها لا من أعماقها والذين استطاعو من شعرائنا أن يجعلوا في شعرهم موضوعاً واحداً مرصوصاً ومن كتّابنا أن يجعلوا في كتاباتهم مثل هذا الموضوع المتصلة أجزاؤه بعضُها ببعض اتصالاً منطقياً كانوا ولا ريب في ذلك أئمة الانقلاب في الشعر والتفكير ، من ذلك مقامات البديع والحريري فانها وحدة تامة نستطيع ان ننظر في أجزائها وأن ندرس هذه الأجزاء دون أن يعترض دراستنا استطراد أو معاظلة أو ما شابه ذلك ، ومن ذلك كثير من موضوعات رجال الفكر فينا كابن خلدون مثلاً في مقدمته ، وعملنا في هذا العصر انما هو تنسيق هذا الأدب المتشتت وهو عمل غير يسير يستلزم كثيراً من الجَهْد والصبر والبال الطويل .

كيف يكون تفكيرنا لو كانت كتب أدبنا في الماضي تشتمل على موضوعات مستقلة ، لا يركب بعضها بعضاً ، اني أضرب مثلاً لذلك ، نجد في كتاب اللؤلؤة في السلطان الخبر الآتي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعمّاله وأن يستخلفوا من هو من ثقاتهم حتى يرجعوا فلما قدمنا أتيت يَرْفأ فقلت : يا يرفأ ! اني سائل مسترشد أخبرني أيُّ الهيآت أحبُّ الى أمير المؤمنين أن يرى فيها عمّاله فأومأ الى الخشونة فاتخذت خفين مطارَقين ولبست جبة صوف ولثت رأسي بعمامة دكناء ثم دخلنا على عمر فصفّنا بين يديه وصعّد فينا نظره وصوّب فلم تأخذ عينه أحداً غيري فدعاني فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثي قال : وما تتولى من أعمالنا قلت : البحرين قال : فكم ترزق ؟ قلت : خمسة دراهم في كل يوم قال : كثير ! فما تصنع بها ، قلت : أنفقُ منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لي فما فَضَل منها فعلى فقراء المسلمين فقال : لا بأس : ارجع الى موضعك ، فرجعت الى موضعي من الصف ثم صعّد فينا وصوّب فلم تقع عينه الاَّ عليَّ فدعاني فقال : كم سنوك ؟ فقلت : ثلاث وأربعون سنة ، قال : الآن حين استحكمت ثم دعا بالطعام وأصحابي حديثو عهد بليّن العيش وقد تجوّعت له فأتى بخبز يابس وأكسار بعير فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد الأكل فنظرت فاذا به يلحظني من بينهم ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني سُخْت في الأرض ولم ألفظ بها فقلت : يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى صلاحك فلو عمدتَ الى طعام هو ألين من هذا فزجرني وقال : كيف قلتَ ! قلت : أقول : لو نظرت يا أمير المؤمنين الى قوتك من الطحين فيخبزَ لك قبل إرادتك إياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز ليناً وباللحم غريضاً فكنت من غَرْيه وقال : هذا قصدتَ ، قلت : نعم ، قال : يا ربيع ، انّا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائقَ وسبائكَ وصِناب ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال : « أذهبتم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طيباتِكم في حياتكمُ الدنيا واستمتعتمْ بها » ثم أمر أبا موسى أن يقرّني على عملي وأن يستبدل بأصحابي !

وقبل هذا الخبر نجد الخبر الذي قرأناه وهو قدوم عمر على معاوية بالشام فالخبران قد قرنا بأخبار ما يصحب به السلطان ولا بأس بذلك فكأن ابن عبد ربه يدلنا على أخلاق عمر بن الخطاب في ميله الى الخشونة في الطعام والبساطة في الحكم ، كأنه يقول لنا ان عمر بن الخطاب يُصحب بالزهد في ليّن العيش وثِقل المواكب قد ينفعنا الخبران في بحثنا عن أخلاق عمر بن الخطاب في هذا المعنى ولكن نفعهما أعظم من ذلك انا اذا كنا نبحث عن تطور مظاهر الحكم في العرب والاسلام، نجد في هذين الخبرين مادّة خصبة لنا، ففي حديث عمر بن الخطاب مع الربيع بن زياد الحارثي نجد ميل الخلفاء الراشدين الى بساطة هذه المظاهر ، فالبساطة في صدر الاسلام كانت غالبة على كل شيء ، على الحكم من جهة وعلى الفن من جهة ثانية ولو قابلنا بين خطب أولئك الخلفاء وبين طراز مظاهر حكمهم لوجدنا نسبة شديدة بينهما من حيث البساطة وفي الخبر المتعلق بقدوم عمر على معاوية بالشام نجد « تطور » هذه المظاهر فقد انتقلت من البساطة الى الأُبَّهة وهذا شيء له شأن في تنسيق تاريخنا ، معنى هذا أن معاوية في الشام مشى على آثار البيزنطيين في ايثاره المواكب الثقيلة ، ومن هذا يتبيّن لنا تأثير البيئة في الحياة الاجتماعية وقد « تطوّرت » هذه الأُبهة على ممر العصور حتى أفضت في بعض عهد بني أمية وكثير من عهد بني العباس الى اللهو والتبذير وما شاكلهما .

فلو رتّب ابن عبد ربه مختاراته على هذا الشكل ، فجاء بخبر يدل على ميل عمر بن الخطاب الى الخشونة ثم جاء بالخبر الذي يدل على ميل معاوية الى الأُبهة والعظمة لمهّد لنا سبيلاً الى التمكن من تتبع مظاهر الحكم في العرب والاسلام فاستطعنا بهذا التتبع أن نقابل بين هذه المظاهر على توالي العصور وأن نجد أثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كل عصر في ذلك ولا شك في أن عملاً من هذا النوع ينسق تفكيرنا ويقوّي هذا التفكير إلا أن ابن عبد ربه قد رتّب أبواب كتابه ولكنه جعل كل باب دون شيء من الترتيب فلم يؤلف بين الموضوعات المتشابهة في كل باب ، فبينا نجده يختار كلاماً يتعلق بحقوق الرعية اذ يرجع فيبحث عن عدل الإمام وعلى هذا النحو من الترتيب يشتت تفكيرنا فلا يستطيع فكرنا أن يتتبع موضوعاً واحداً فلا ينتقل الى موضوع آخر قبل الفراغ من الموضوع الذي ينظر فيه ، وأظن أنا اذا كنا نشكو في هذا العصر ضعف أدبنا الرياضي فمن جملة أسباب هذا الضعف كتب أدبنا غير المنسقة ، فأكثرنا يدخل في موضوع فلا يعرف كيف يبدأ ولا كيف ينتهي وأكثرنا يلتي كتلة من الشرق وكتلة من الغرب .

واذا كنا ندرس العقد الفريد فانا ندرسه لننتفع بهذه الأمور الفنية التي أشار اليها صاحبه في مقدمته وندرسه لنستخرج من وراء هذه الأمور موضوعات فكرية نجهد في تنسيقها وتأليفها كما استخرجنا من وراء الخبرين اللذين مرا بنا مظهراً من مظاهر الحكم في العرب والاسلام .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net